تَدَاعِياتُ المَدائحِ النَّبويةِ على البيئة فى العصرِ المَملوكى

أ.مشارك.د. عزت ملا ابراهيمي/ جامعة طهران (إيران)
على رسولى/ جامعة العلامة الطباطبائي في طهران (إيران)

The Effect of the Prophetic Praises on the Society in the Memlooki Era

Associate Prof. Izzat Mula Ibrahimi / University of Tehran (Iran)
Ali Rasooli / University of Al-Alama Al-Tabataba'I in Tehran / (Iran)
erfanadab534@gmail.com

Abstract

This paper deals with the effect of the prophetic praises on the Arab society in the Memlooki era. This art developed after the prophet's call for Quraish to unite and gather under one religion and one flag to be saved from chaos . This art passed through various periods such as Al-Fatimi, Al-Zanki, and Al-Ayoobi and spread all through the different parts of the Islamic Arab nation.

Key words: Effect, influence, prophetic praise, Al-Memlooki era

الملخّص

تبحث هذه المقالة تداعيات المدايح النبوية على البيئة فى العصر المملوكى وبيان أهميته على المجتمع العربى وأما تشير ظهور هذا الفن بعد أن ظهر النبىّ (ص) فى قريش ودعاهم إلى الوحدة والاجتماع تحت دين واحدة وراية واحدة لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفذ قواهم واستعمار يستذلهم ويسترّقهم كما جآء فيها ذكر العناصر اللازمة والهيكل العام للمدايح النبوية ونحن هنا فى صددنا بذكر أثرات التى هبطت على شاكل الناس؟! وكما نشاهدها فى العصور السابقة حتى إذا وصلنا إلى العصر الفاطمي والزنكي والأيوبي، وجدنا فن المدح النبوي ينتشر في بقاع البلاد العربية الإسلامية، ليرسخ ويتعمم فناً مستقلاً قائماً بذاته من فنون الشعر العربي في العصر المملوكي.

سنحاول فى هذه المقالة دراسة التأثير والتأثر المدايح النبوية فى هذا العصر على البيئة ونعرّف فيه كيفيّة هذه التأثير فى هذا العصر التى نقسّمها الى أثرين؛ الأول: *تداعيات المدائح النبوية فى المجتمع* الذى ينقسم إلى قسمين: الأثر الإجتماعى يشتمل على؛ النصح والإرشاد، والإعتقاد بالمدائح النبوية، والجدل العقائدى، وإظهار النزعة العربية، وأما الأثر التعليمى؛ القدوة والمثل، والمعرفة والثانى: *تداعيات المدائح النبوية فى الثقافة* وهى أيضاً على قسمين؛ الأول: فى الشعر، والثانى: فى البديع.

الكلمات الدليليّة: التأثير، تأثّر، المديح النبوى، العصر المملوكى.

المقدمة

الأدب عامة هو ثمرة تفاعل الأديب مع بيئته والظروف المؤثرة فيها، ولذا كانت موضوعات الشعر وشكله الفني في كل عصر صدى لمظاهر البيئة. فبدأ مدح النبوي منذ بعثة رسول الله (ص) فالناس من حوله أعجبو بشخصيته وكمالها، فتوجهوا اليه بالمدح كما يمدحون ساداتهم، وأما المدح النبوى يختلف عن المدح العام فى الشعر العربى بأنه موجه الى النبى الكريم. وكما نشاهدها فى هذا العصر بأن المدح النبوى هو لون من ألوان الشعر الدينى، إختلط بألوان أخرى فى مسيرة تطوره حتى العصر المملوكى، ولذلك عدّ بعض الدارسين مدح آل البيت والتشوق للأماكن المقدسة من المدح النبوى وعدّوا المدح النبوى جزءاً من الشعر الصوفى، وخلطوا بين المولد النبوى والمدح النبوى، ولو تمعّنا فى هذه الفنون لو وجدناها تقترب من فن المدح النبوى وتتقاطع معه، لكنها تفترق عنه أيضاً فى نواح كثيرة، فالمدح النبوى الذى جرى على الطريقة التقليدية لا يلتقى بمجمل فن المدح النبوى وصورته التى عرفت فى العصر المملوكى، ومدح آل البيت فيه ذكر لرسول اللّه (ص) ولكنه ليس مدحاً له، والشعر الصوفى كذلك الأمر. فهناك تبادل فى التأثير والتأثر بين الأدباء ومجتمعاتهم، والأدب يسعى إلى تغيير المجتمع بما يقدمه من قيم جديدة، أو يحيى فيه قيماً معروفة، ويعمل على ترسيخها، وينسجم هذا المفهوم للشعر مع المفهوم الإسلامى الذى أراد للشعر أن يكون أداة بناء المجتمع، يشجع على التخلق بالأخلاق

الفاضلة، واعتناق المُثل العليا، فكان رسول اللّه (ص) يبصّر شعراء المسلمين بمواطن القول الحق، ويبعدهم عن الروح الجاهلية والتقاليد الفنية التى نشؤوا عليها، ونظموا شعرهم من وحيها، فهو أراد للشعر أن يكون فناً كريماً، ملتزماً بقضايا الإنسان، ينشد الحق والخير والمبادئ السامية، لا ممتَهناً ولا وسيلة تكسب، وأراد للشاعر أن يكون فاضلاً مؤمناً صادقاً فى فنه.

إن دواعى اتساع المدح النبوى ومسوغاته فى العصر المملوكى كثيرة ومتنوعة، فالظروف السياسية والإجتماعية والدينية التى كانت سائدة آنذاك، كانت كلها تدفع الشعراء الى مدح رسول اللّه (ص)، والإكثار من مدحه. والأدب يعكس الحياة، وشعراء المدح النبوي لم يكونوا في شعرهم بعيدين عن عصرهم ومجتمعهم، وإنما كانوا يجسدون حالا موجودة، تشغل الناس، وهي الاحتفال بالنبي صلّى الله عليه وسلّم والإشادة به في ظل ظروف الحرب والقهر، أو تعرض الدين لهجمة شرسة، ونبيهم لافترآآت الغزاة وإفكهم، فكان لا بد لهم من الرد، والانتصار لدينهم ونبيهم، أو أنهم استحضروا السيرة النبوية والشمائل النبوية، وأشاعوها في حياتهم للوصول إلى هدف معين فالصراع مع العدو الخارجي كان على أشده، والغزاة أرادوا اقتلاع الوجود العربي، وقد صبغ الأوروبيين عدوانهم بصبغة دينية، فهاجموا الإسلام وانتقصوا من قدر رسول اللّه (ص)، فردّ الشعراء عليهم بالإشادة برسول اللّه (ص) ومدحه وتقديمه على الناس جميعا والأنبياء الكرام، وقدموا في قصائد مدح رسول اللّه (ص) صورا من البطولة والتضحية وأمثلة على التفاني في نصرة الحق، ليحثوا المسلمين على مقاومة الغزاة، ورد عدوانهم على الأرض والأمة وتراثها. وكذلك الأمر مع سياسة المماليك الداخلية، فقد انفردوا بالسلطة، ولم يقيموا العدالة الاجتماعية كما يجب أن تكون، ولم يحافظوا للعرب حقهم في التقدير، وهم أصحاب البلاد، وهم الذين حملوا راية الإسلام ورسالته إلى العالم، وهم أهل رسول اللّه (ص)، فجاءت المدائح النبوية لتذكر المماليك بهذه الحقائق ولتحفز العرب على المطالبة بحقوقهم، واستعادة مكانتهم وأمجادهم. وحفل العصر الملوكي بصور من المظالم التي عانى منها الناس كثيرا فجاءت المدائح النبوية متوسلة برسول اللّه (ص) ليرفع عنهم هذه المحن، فيرفعون ظلمهم عن الناس، ولعل الناس يعرفون حقوقهم، فيطالبون بها، ويرفعون الجور عن أنفسهم.

أسئلة البحث:

١. ما هى سبب دفع الشعراء الى المدايح النبوية ؟
٢. ما هى تداعيات هذه الأشعار على الشعب والثقافة ؟

خلفية البحث:

لم تدرس حتى الان عن تداعيات المدايح النبوى على البيئة فى العصر المملوكى بصورة وافية أمّا الدكتور محمود سالم محمد فأشار فى كتابه بصورة عابرة سهّل لنا الطريق فى دراستنا هذه.

و لِشَرح هذه التأثيرات على المجتمع والثقافة وظهورها، لابدّ لنا أن ندخل اليه ومكتشفين عن أثرات الشعراء المديح النبوى خلال بحثنا، وأما فكرة هذه المقالة فهى تعيين تداعيات الشعراء على الشعب والثقافة وأيضاً فى العصر المملوكى وهذا ما سندرسه فى هذه المقالة من خلال دراسة موضوعنا هذا.

منهج البحث:

بداية تطرقنا إلى تأثير المديح النبوى على البيئة فى المجتمع والثقافة ثم تكلمنا عن تأثير بعض الشعراء على الناس بسبب أشعارهم واختبرنا أبياتا من شعرهم وقد ضمّنت فى طيّاتها صوراً من البطولة والتضحية وأمثلة على التفاني في نصرة الحق، ليحثوا المسلمين على مقاومة الغزاة، ورد عدوانهم على الأرض والأمة وتراثها، ثمّ ذكرنا وبيّنّا أقسام هذه التداعيات بشكل موجز. فقد كان منهجنا فى هذا البحث توصيفيّاً _ تحليليّاً.

أثر المدائح النبوية:

الفصل الأول: تداعيات المدائح النبوية في المجتمع:

١. الأثر الاجتماعي:

إن الأسباب التي دفعت إلى التوسع في فن المدح النبوي، وساعدت على انتشاره، تشير إلى ما رآه شعراء المدح النبوي من آثار لقصائدهم في نفوس الناس، فالأسباب السياسية تظهر أن قصائد المدح النبوي التي تحمل إشارات سياسية مثل الإشادة بالعرب وتفضيلهم، كانت تلقى تجاوبا عند العرب، وتحثهم على إبراز شخصيتهم في مناحي الحياة كلها، والأسباب الاجتماعية تنمّ عن أن مهاجمة شعراء المدح النبوي للظلم والمساوئ الاجتماعية كانت تنبّه الناس على ضرورة التخلص من هذه المساوئ، والأسباب الدينية تظهر أن شعراء المدح النبوي كانوا يؤثّرون في الجدل الديني الدائر بين المسلمين، فينتصر كل شاعر بالمدح النبوي للمذهب الذي يميل اليه. والذي ينظر في شعر العصر كله، يلاحظ أنه انعكست عليه ملامح الحياة، وأصداء أحداثها السياسية والاجتماعية، وتياراته الفكرية والدينية. وقد شهد العصر المملوكي على امتداده مصاعب لا حصر لها، وأزمات متلاحقة، وعرف فيه الظلم الاجتماعي، وظل الصراع السياسي والعسكري على أشده، بسبب الغزو الأوروبي والغزو المغولي، فبقي الناس في قلق وضيق وترقب. وفي مثل هذه الأحوال تكثر الدعوات للإصلاح والتخفيف عن الناس، بطرق شتى، منها الشعر الذي ينتشر بين الناس، ويصل إلى الحكام، والذي يظهر مواطن الخطأ في المجتمع، ويشير إلى طرق تجاوزه باقتضاب، وبإشارات مبطنه، فيلهج به الناس، ويرددونه، ليدفعوا من بيده المقدرة على الإصلاح إلى فعل ذلك.

وعرف الأدباء العرب آنذاك أثر الشعر في النفس الإنسانية، فقال حازم القرطاجني عن الشعر: «من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمّن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها، أو متصوّرة بحسن هيئة تأليف الكلام، أو قوة صدقه، أو قوة شهرته، أو بمجموع ذلك» (قرطاجنى،١٩٨٩: ٧١) ولذلك شبّه الأدباء آنذاك أثر الشعر بأثر السحر، وأطلقوا على بعض الشعر (السحر الحلال) «الذي يلعب بالعقول، ويدع الإعجاب بحسنه يقوم ويقول» (الصفدى، ١٩٨٥: ٢٨٩/١). «ولأنه يخيّل للإنسان ما لم يكن، للطافته، ولأنه قادر على التأثير والإقناع في الحال ونقيضه من غير مسوّغ واضح» (ابن الأثير، ١٩٨٦: ٢٠٦/١).

١-١ النصح والإرشاد:

هذه النصائح نجدها في المدائح النبوية، مثلما نجد الوعظ والحكم للناس جميعا، الذين تأخذهم بهجة الدنيا، فينسون الآخرة، وينسون الطريق السليم في الحياة، فيذنبون ويسيؤون إلى غيرهم، وقد ينبّه الشاعر غيره بالحديث عن نفسه، مثل قول البوصيري:

إلى متى أنت باللّـــذات مشغـــول ... وأنت عن كلّ ما قدّمت مسؤول
في كلّ يوم ترجّي أن تتوب غدا ... وعقد عزمك بالتّسويف محلول
فجـرّد العزم إنّ الموت صـــارمه ... مجـــرّد بيـــد الآمال مسلول
وصن مشيبك عن فعـل تشـــان بـــــــه ... فكـــلّ ذي صبوة بالشّيب معـذول

(ديوان بوصيرى، ٢٠٠٢: ٢٢٠)

فالمدائح النبوية تحفل بالوعظ والإرشاد، وهي تذكر الناس باليوم الآخر، وبعدالة السماء، ليكفّ الظالم عن ظلمه، والمسيء عن إساءته، وتحثه على إقامة شعائر الدين والاقتداء بسنّة رسول الله، لتنتفي مظاهر الخلل في المجتمع، وتتحقق العدالة في الدنيا، قبل أن تقتص منه عدالة الله تعالى في الآخرة.

١-٢ الاعتقاد بالمدائح النبوية:

وقد شاع في ذلك العصر التوسل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستنجاد به من الكروب التي عمّت الناس، وشاعت رؤيا النبي الكريم في المنام، وانشغل الفقهاء بهذه الرؤيا، وخاصة في أخذ الرائي بما يؤمر به في المنام. إن الاعتقاد برؤيا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام، وفي كل ما يتعلق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان قويا في العصر المملوكي وكان الناس يتجهون إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالتوسل عند كل ملمّة تكربهم، والمدائح النبوية حافلة بمثل هذا التوسل وهذا يعني تأثر الناس بالمدائح النبوية وبما تحويه، فعند «وقوع الطاعون كثر الزعم برؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم» (إبن رشيق،١٩٧٢: ٣/٢٨٦).

لذلك نجد المدائح النبوية حافلة بالاستغاثة، معبرة عن اعتقاد أهل ذلك العصر في جدوى التوسل والاستغاثة، وقد عبر شاعر يدعى (أحمد بن عبد الرحمن الدهلوي) عن هذا الاعتقاد في قوله:

إذا مـــا أتتني أزمة مدلهمّـة تحيط بنفسي من جميع جوانبي

تطلّبت هـــل من ناصر أو مســاعــد ألـــــوذ به من خوف سوء العواقب

فلست أرى إلّا الحبيب محمّدا رســــول إلــــه الخلق جمّ المناقب (الباعونية،١٩٨٧: ٢١)

ومن اعتقادهم بجدوى التوسل والتشفع جاء اعتقادهم بالمدائح النبوية كلها، وبتأثيرها على ناظمها وسامعها، فبالإضافة إلى كونها أدبا، غدت عندهم نوعا من أنواع النصوص الدينية التي تجلب تلاوتها المنافع، وغدا إنشادها ضربا من التعبد، فوصفت الباعونية المدح النبوي بقولها: «المدح النبوي شعار أهل الصلاح، وسيما أهل الفلاح، وهو ممّا يتنافس فيه المتنافسون، ويدأب فيه المخلصون، إذ هو من أعظم وسائل النجاح، وسبب لمضاعفة الأرباح»(المصدر نفسه: ٢٣). فهي تشير إلى اعتقاد الناس ببردة البوصيري، التي تشفي من الأمراض، وتفرّج الكروب، وهي تذهب إلى أن تأثير البردة ثابت ومجرب، وهذا عائد إلى قصة نظم. البردة التي رواها البوصيري، فقد أخبر أن المرض أقعده، ولم يفلح معه دواء، فمدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقصيدته المشهورة، فرآه في المنام، وخلع عليه بردته، فنهض في الصباح، وقد عوفي من مرضه (ابن شاكر،١٩٧٣:٣/٣٦٨). ومع تقدم الزمن أخذ الاعتقاد بالبردة يشتد ويقوى، واحتفل بها المتصوفة أيما احتفال، بل وضعوا لقراءتها شروطا لم يوضع مثلها لقراءة القرآن، منها التوضؤ، واستقبال القبلة، والدقة في تصحيح ألفاظها وإعرابها، وأن يكون القارئ عالما بمعانيها»(المصدر نفسه: ٣/٣٩١).

ولهذا وصف ابن عربشاه (ابن عربشاه،١٩٧٦: ٥/٩٧) المدح النبوي بقوله:

ولقد شكوت إلى طبيبي علّتي ممّا اقترفت من الذّنـوب الجانية

وصف الطّبيب شراب مدح المصطفى فهو الشّفا فاشرب هنيئا وعافية

لقد أضحى المدح النبوي دواء للخلاص من الذنوب.

١-٣ الجدل العقائدي:

بيد أن المدائح النبوية أثارت نقاشا حادا بين المسلمين حول مضمونها، وجواز التوسل بالنبي الكريم وطلب شفاعته فيها، ففريق من المسلمين، كانوا ينكرون الاستغاثة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا يجيزون التشفع والتوسّل إلا بالله تعالى، وباقي جمهور المسلمين كانوا يجيزون التشفع والاستغاثة بالنبي الكريم، وكل فريق له حججه وبراهينه، التي يدعم بها رأيه. ويظهر أن المدائح النبوية مثلما كانت موضع مدارسة واستظهار وإنشاد في مجالس، كانت موضع جدال ونقاش في مجالس أخرى، وكان النقاش ينصب على الاستغاثة والتوسل فيها، وعلى بعض الروايات الغيبية التي تتحدث عن مكانة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم السامية، مثل الحقيقة المحمدية وعلاقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالأنبياء، التي وردت في المدائح النبوية. وقد وجد أصحاب المذاهب الإسلامية في المدائح النبوية مناسبة لعرض آرائهم والجدل حولها، مثل رد ابن الزملكاني على من ينكر على شعراء المدح النبوي التوسل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستغاثة به، في قوله (ابن شاكر، ١٩٧٣: ٤/١٠):

يا صاحب الجاه عند الله خالقه ما ردّ جاهك إلّا كلّ أفّاك
أنت الوجيه على رغم العدا أبدا أنت الشّفيع لفتّاك ونسّاك
يا فرقة الزّيغ لا لقيت صالحة ولا سقى الله يوما قلب مرضاك

وكذلك الأمر مع جدال أهل الكتاب، فالشعراء وجدوا في المدح النبوي فرصة لمقارعة الغزاة من أهل الكتاب، ورد حججهم، وتسفيه آرائهم، والدفاع عن الإسلام ونبيه الكريم، فهم يعرفون أن ردّهم هذا سيصل إلى الناس في مدائحهم النبوية التي انتشرت انتشارا عظيما، وسينفعل الناس بذلك، ويعرفون كذب افترآات أعدائهم، وما بذله شعراء المدائح من جهد في الذب عن الإسلام والمسلمين، ومن ذلك قول البوصيري:

ما بال من غضب الإله عليهم حادوا عن الحقّ المبين ونكّبوا
عبدوا وموسى فيهم العجل الذي ذبحوا به ذبح العجول وعذّبـــــوا
وصبوا إلى الأوثان بعد وفاته والرّسل من أسف عليهم تندب (البوصيرى،٢٠٠٢: ٩٣)

و قد أفلح شعراء المدائح النبوية في ردّهم على من انتقص الإسلام من أهل الكتاب، وقدّموا للناس ما يستطيعون أن يردوا به على هؤلاء، وبصّروهم بحقيقة ادعاآتهم، وأطلعوهم على معتقداتهم، وبثوا في الناس الحماسة للجهاد والتضحية، وخاصة حين عرضوا في مدائحهم النبوية لوحات رائعة لبطولة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشجاعته وصبره على قتال أعداء الله.

١-٤ إظهار النزعة العربية:

لقد وضعت المدائح النبوية أمام الناس أمثلة عظيمة من العدل الاجتماعي، وحرّكت في نفوسهم التوق إلى العدالة والمساواة والكرامة الإنسانية، وتطبيق مبادئ الدين الحنيف جميعها، فتضافرت مع أسباب أخرى، ليظهر التململ الاجتماعي الذي تحدثنا عنه سابقا، وكانت مناسبة عظيمة ينفّس العرب فيها عن كربهم وكبتهم، فهم يمدحون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو عربي الأرومة واللسان، ولا يستطيع أحد أن يعترض على ذلك، ويمدحون العرب بذكر الصحابة، ولا يجرؤا أحد على الاعتراض والمساءلة، وبذلك يشاد بالعرب في دولة لم يكونوا السادة فيها، وهذا يظهر أنهم لم يخلدوا لسبات عميق، وظلوا في حركة وتململ، وظلوا معتزين بأنفسهم، فهم حملة الرسالة السماوية ومنهم سيد الخلق الرسول العربي الكريم. وعلى الرغم مما وصل إليه الأتراك من نفوذ، فهم لم يستطيعوا أن يصبغوا البلاد العربية بصبغتهم، ولم يستطيعوا الابتعاد كثيرا عن الثقافة العربية، لأن اللغة العربية ظلت لغة الدولة والعلم والتأليف، وظلوا يحتفظون في أنفسهم بشيء من الاحترام للخلافة العربية الإسلامية، ويحرصون على استمداد شرعية ملكهم منها. ولم يكن الاعتزاز بالعروبة قاصرا على الذين يحتفظون بسلسلة نسبهم العربي الخالص، وإنما اعتز بالعروبة كل من انتمى إليها حضاريا، فاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، جعل من العسير على معظم الناس الاحتفاظ بأنسابهم، وإثبات أصالتها العربية، لكن ذلك لم يقلل من انتمائهم للعروبة، وخاصة أن الإسلام ربط بين عناصر الدولة، وخفّف من حدة التنافر بينها، فجميعها تلتقي على الإسلام ورسوله الكريم، وتتوحد حوله، ولذلك وجدنا من يرى في علاقة العرب بالترك علاقة تكامل، لا علاقة تطاحن، مثل قول ابن سناء الملك مشيدا بانتصارات الأتراك في الحروب الصليبية قبيل دولة المماليك:

بدولة التّرك عزّت ملّة العرب وبابن أيـّوب ذلّـــت شيـــعة الصّلب
وفي زمان ابن أيّوب غدت حلب من أرض مصر وعادت مصر من حلب (ابن سناء،١٩٧٧: ٧)

بيد أن المماليك الأتراك لم يفسحوا لغيرهم مكانا واسعا في سلطة دولتهم، وانفردوا باتخاذ القرارات المصيرية، وهذا ما حزّ في نفوس العرب الذين ثاروا عدة مرات على المماليك، لكن ثوراتهم لم تنجح، فانكفؤوا على أنفسهم، يظهرون شخصيتهم وآمالهم في الثقافة والأدب، ويعزّون أنفسهم في العبادة والزهد. فقال مؤلف كتاب (مبلغ الأدب في فضائل العرب): «إن كثيرين من الفرق الأعجمية والطوائف العنادية، جبلوا على بغض العرب». وجعل من كتابه إثباتا لفضل العرب، فعرض الأحاديث والروايات التي تؤيد ذلك. من مثل:

(حب العرب إيمان وبغضهم كفر وحب العرب من محبة النبي.. وغير ذلك) (الهيثمى،١٣٣١: ٣).

وافتتح خطبة الكتاب بقوله: «الحمد لله الذي اختص العرب بين سائر الأمم بمزايا لا تحصى، وأشهد ألاإله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الذي شرّف الله به العرب على سائر من سواهم، بفضائل لا تستقصى» (الرضى،١٣١٠: ١/٩١). فالعرب في الدولة المملوكية تحسسوا وجودهم وكيانهم، وعبروا عن ذلك في الثقافة والأدب، متابعين تبرم العرب بالتسلط الأعجمي قبل قيام الدولة المملوكية، فالشريف الرضي كان يجسد في شعره طموح العربي إلى الحرية، ونزعته إلى أن يكون حرّا سيّدا كريما في أرضه، ولذلك جعل الحجاز رمزا لتوقه وخلاصه، وتعبيرا عن نزعته العربية، فقال في إحدى قصائده (البرعى،١٩٥٠: ١٣٦):

ومن شيم الفتى العربيّ فينا وصال البيض والخيل العـراب

سقــى الله المدينة من محلّ لبــاب الماء والنطف العذاب

ويظهر أن التشيّع لآل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والإشادة بهم، كانت متنفسا للإشادة بالعرب والعروبة، وكذلك الأمر في الحنين إلى الحجاز وبقاع الجزيرة العربية، فهو حنين إلى بقاع عربية، وإلى زمن عربي بوجه من الوجوه، أو هو تعبير مستتر عن النزعة العربية التي هيّجها شعر الحنين إلى الحجاز ومدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

إن مدخل الإشادة بالعرب في المدائح النبوية، هو الافتخار بكون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العرب، والافتخار به ما بعده افتخار. وقد أكدّ هذا المعنى في قصيدة أخرى فقال:

ومن شرف الأعراب أنّ محمّدا أتى عربيّ الأصل من عرب فصح (البحترى،١٩٧٢: ١/٥٠٧)

فالمعنى واضح في ذهن الشاعر، وواضح في شعره، أنه يشيد بالعرب، ويرفع قدرهم، لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منهم، والقرآن أنزل بلسانهم، ولذلك لهم ميزة على من سواهم، أو لأمته ميزة على غيرها من الأمم، وأن المدح النبوي بذاته يحمل إشادة بالعرب أثناء الإشادة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، دون أن يقصد الشاعر إلى ذلك قصداً.

ولا شك أن المدائح النبوية أثارت بما تضمنته من مدح للعرب، في نفوسهم الرغبة بالانتصاف وتحقيق العدالة في الدولة المملوكية، وأحيت الأمل باسترجاع مكانتهم السامية في الدولة الإسلامية، وذكّرت الناس بحق العرب، ووجوب مراعاة جانبهم، لفضلهم السابق، ولشرفهم ببعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بينهم.

٢. الأثر التعليمي:

إن انشار المدائح النبوية الكبير بين الناس قد ترك أثرا في نفوسهم، وقبولا، ولولا ذلك ما أصبحت شغل المجالس المختلفة، ومادة الإنشاد في الاحتفالات والأعياد.

والمدائح النبوية حافلة بالمعلومات التاريخية والدينية، ومملوءة بصور العظمة والبطولة، والمواقف الأخلاقية الفذة، وفيها القدوة الحسنة، والدروس المفيدة، والموعظة المقنعة، ولذلك لا بد أن يفيد الناس من المدائح النبوية تاريخا وخلقا ومعرفة بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعجزاته، وأن يحاولوا الاقتداء بسنّته، والابتعاد عمّا يخالف هديه. ولا شك أن معظم مادحي النبي كانوا يريدون نشر الفضيلة عند ما رصعوا مدائحهم بفضائل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشمائله الكريمة، ويهدفون إلى استخلاص العبر من مواقفه السامية وسيرته المباركة، ويدعون الناس إلى الاقتداء بهديه وسلوك صحابته الغرّ الميامين، ولم يكونوا يقررون شيئا ثابتا معروفا. إنهم نقلوا المقاصد الدينية إلى الشعر، وتابعوا الدين في تناوله للأخلاق بالصقل والتهذيب، وتوجيه الناس نحو الآداب العامة، ونحو إرساء الروح الجماعية للأمة الإسلامية، وجعل المسلمين قوة واحدة ومجتمعا فاضلا. وكانت المدائح النبوية في طليعة أشكال الكتابة الأدبية التي كانت تظهر في العصر المملوكي، هادفة إلى الإصلاح الخلقي، مثل الرسائل والكتب التي تناولت الاقتصاد والاجتماع والعقيدة بالدرس والانتقاد، وبيّنت طرق الإصلاح لها، ومنها (إغاثة الأمة) للمقريزي، و(معيد النعم) للسبكي، و(التيسير والاعتبار) للأسدي.

٢-١ القدوة والمثل:

وأول ما قدمته المدائح النبوية في هذا الباب، تجسيد القدوة المثلى برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقد كان المثل الأعلى في مناحي الحياة كلها، والذي لا يمكن اللحاق به، ولكن الاقتداء به يجعل المرء مستقيما في حياته، سعيدا متعاونا مع أقرانه، راضيا لثقته بأنه يتبع سنة خير الخلق التي تضمن له رضا الله تعالى ومغفرته. وإذا اقتدى أفراد المجتمع برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فإن المجتمع سيكون مجتمعا خيّرا قويا متماسكا، يسوده العدل والرحمة والمحبة. ففي مجتمع كان فيه المستأثرون بالثروة قلّة، وبقية الناس تعاني العوز والمرض، لا بد من تذكير الأغنياء بأن رسول الله أعظم إنسان خلقه الله، كان متواضعا رحيما ناكرا لذاته، بعيدا عن التفكير في الثراء وجمع المال، ولو أراد ذلك لحصل على ثروات الأرض وكنوزها، وقد ردّد شعراء المدح النبوي هذه الصفة عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتحدثوا عن زهده في الدنيا وبهرجها، ليتعظ المتهالكون على المال، والذين يظلمون من أجل الحصول عليه وكنزه. ودأب المصلحون في ذلك العصر على تنبيه الناس على تلك المسألة، فقال الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) عن المال: «ولو كانت فيه فضيلة لخصّ الله به من اصطفاه لرسالته، واجتباه لنبوته، وقد كان أنبياء الله تعالى مع ما خصّهم من كرامته، وفضلهم على سائر خلقه فقراء.. حتى صاروا في الفقر مثلا، قال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصبابة ليس البلاء بواحد (المصدر نفسه: ١/٥٠٨)

لقد كانت سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا يضرب به المثل في مناحي الحياة كلها، ومما تقارن به أعمال الناس، وكان الشعراء قبل العصر المملوكي، يتمثلون بمواقف النبي الكريم وأقواله، فعند ما أراد شاعر مدح إنسان بالتواضع والانصياع للحق مع مكانته العالية، فإنه لم يجد مثلا لذلك أفضل من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكان الشعراء يذكّرون الناس بسنّة رسول الله وسيرته، ليتعظوا ويعودوا عما يخالفها، وهذا ما فعله الصفي الحلي حين حث السلطان على إقامة الحد على لصوص سرقوا ماله واحتموا بأحد نوابه، في قوله:

وكذاك خير المرسلين محمّد وهو الذي في حكمه لا يظلم
لمّا أتوه بعصبة سرقوا له إبلا من الصّدقات وهو مصمّم
ورجا أناس أن يرقّ عليهم فأبى وقـــال كذا يجازى المجــرم (الحلّى، ١٩٩٧: ٦٨)

إن الشاعر يذكر السلطان بسنّة رسول الله، الذي جعل الحق فوق كل العلاقات، ولم يراع في الله قرابة ومكانة، وغير ذلك ممّا يعز على النفس. وهكذا مضى الشعراء يضربون المثل برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، مظهرين حسن الاقتداء بسيرته الكريمة، والتأسي بأسوته الحسنة في إصلاح الظواهر الاجتماعية الخاطئة، وتعديل القيم المنحرفة عن جادة الصواب. وإلى جانب ذلك حاول شعراء المدح النبوي توجيه الناس إلى الأخلاق الحسنة بالحكم والمواعظ التي نثروها في ثنايا مدائحهم النبوية، مثل قول الشهاب محمود في مقدمة نبوية له:

ليس موت الفتى إذا صح منه ال قصد دون الذي يحاول عارا
ليس شيء يكفي فإن تقنع النّف س تجد قلّ ما ترى إكثارا (الشهاب،١٢٩٧: ٩٦)

لقد أراد شعراء المدح النبوي أن يعلّموا أبناء عصرهم الأخلاق الحميدة، فعرضوا أخلاق رسول الله الحميدة وأخلاق صحابته الكرام في قصائدهم، ليعرفها الناس ويستذكروها ويتخلقوا بها، وانتقدوا بعض أخلاق عصرهم السيئة، ولا شك أن إنشغال الناس الكبير بالمدائح النبوية، جعلهم يتأثرون بهذا الجانب منها، ويتخلّقون بالأخلاق التي أوردها شعراء المدح النبوي وحبّبوها ودعوا إليها بوعي أو دون وعي. وكذلك عرض شعراء المدح النبوي عقائدهم، حتى تنتشر بين الناس، وأوضحوا مذاهبهم ليتعلمها الناس ويأخذوا بها، وكل واحد منهم يريد لمذهبه الانتشار والانتصار.

٢-٢ المعرفة:

وبذلك يتضح لنا كيف عرض شعراء المدح النبوي عقائدهم، وكيف دعوا إليها، وأوضحوها للناس، فإذا لم يتأثر من يرى رأيا بالرأي المخالف له، فإنه على الأقل عرفه، وعرف أصوله، والمعرفة أحد أهداف المدح النبوي، وغاية من غاياته، كما يظهر في شرح العقائد والمذاهب، وكما يتضح من ذكر مناسك الحج أو الطريق إليه. فقد استفاض الصرصري في إحدى مدائحه النبوية في إيضاح معالم طريق الحج من العراق، كما أوضح شروط الحج وبيّن مشاعره، وهو لا شك يريد بذلك أن يطّلع الذين يجهلون الطريق أو يجهلون شروط الحج ومشاعره، على منازل الطريق، وعلى أصول أداء هذه الفريضة؛ فقال في مدحة نبوية:

ورماها المسير بحصن بشير سامیات الأعناق مستبشرات

وطوت بالمسير بابل طيّا ورمت خلف ظهرها بالفـــرات

ثمّ مرّت بالقادسيّة واجتا زت بخفّان ترتمي ســائــرات (الصرصرى،١٩٨٩: ١٤)

إنّ نظم شروط الحج في القصائد النبوية يختلف عن شرحها في كتاب، لأنها أسهل للحفظ من ناحية، ولأن الشاعر يضيف إليها أحاسيس الحاج ومشاعره، فيثير الشوق في النفوس لتأدية هذه الفريضة من ناحية ثانية، فهذه المعلومات التي ضمّنها مادحو النبي لقصائدهم، توسع معارف الناس، وتطلعهم على جوانب من علوم قد لا يمكّنهم مستواهم الثقافي من الاطلاع عليها، وكذلك تمكّنهم من حفظها.

وبذلك نرى أن شعراء المدح النبوي أفادوا الناس من قصائدهم علما وخلقا، فأطلعوهم على السيرة النبوية وعرّفوهم على معجزات النبي الكريم، وأتحفوهم بأخلاقه السامية، من ذلك قول البوصيري:

فلله صدّيق النّبيّ الذي له فضـــائل لم يدرك بعـد لها حدّ

ومن جمع القرآن فاجتمعت به فضائل منه مثل ما اجتمع الزّبد

ومن لم يعفّر- كرّم الله وجهه جبيـن لغيـر الله منه ولا خـدّ (البوصيرى،٢٠٠٢: ١١٦)

إلى جانب المعلومات المتفرقة عن العقيدة الإسلامية، ومذاهب الناس فيها، فكان لشعرهم أثر في التّخلق بالأخلاق الفاضلة، وفي معرفة المعلومات الكثيرة المتفرقة التي يحتاج إلى معرفتها كل مسلم.

الفصل الثاني: تداعيات المدائح النبوية في الثقافة:

القسم الأول: أثر المدائح النبوية في الشعر:

إن انتشار المدائح النبوية في العصر المملوكي قد ترك أثره في الشعر العربي في ذلك العصر، وقد تبدّى هذا الأثر بوجوه عدة، منها رسوخه غرضا شعريا مستقلا من أغراض الشعر العربي، واحتلاله مساحة واسعة من ساحة الشعر العربي، ومنها تأثيره في أغراض الشعر الآخرى، فقد ترك ظلاله على بعض موضوعات الشعر العربي في بعض قصائدها. ولشعراء المدائح النبوية رأي في تأثير المدح النبوي في شعرهم، إبداعه وتشكيله، إلى جانب أن بعض الباحثين رأوا أن المدح النبوي قد أطل إطلالة خفيفة على فنون لم تعهد في الشعر العربي. وقبل أن يضحي المدح النبوي فنا شعريا مستقلا واضح المعالم، رأى الأدباء أن له أثرا في أصحابه، فابن رشيق القيرواني يورد في باب (من رفعهم الشعر) من كتابه (العمدة) حديثا عن حسان بن ثابت يقول فيه: «لم تكن له ماتّة ولا سابقة في الجاهلية والإسلام، وقد بلغ من رضا الله عز وجل ورضا نبيه عليه الصلاة والسلام ما أورثه الجنة»(ابن رشيق،١٩٧٢: ٥٣/١). وأورد في باب (من قضى له الشعر ومن قضى عليه) عن حسان بن ثابت أيضا قوله: «أنشد حسان بن ثابت حين جاوب أبا سفيان بن الحارث بقوله:

هجوت محمّدا فأحببت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له: جزاؤك عند الله الجنة يا حسان.. فلمّا قال:

فـإنّ أبي ووالده وعرضي لعرض محمّد منكم وقـــاء

قال له: وقاك الله حرّ النار، فقضى له بالجنة مرتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره»،(المصدر نفسه: ٥٣/١) فمدح النبي رفع شأن الشعراء وشعرهم، وضمن لمعاصري رسول الله الجنة بدعوة رسول الله ورضاه.

٢-١ أثر المدائح النبوية في الإبداع الشعري:

ولشعراء المدح النبوي آراء حول تأثير المدح النبوي في الشعر، أوردوها في مدائحهم النبوية، وكل منهم له رأيه الذي استقاه من تجربته مع المدح النبوي، فإلى جانب أثر المدح النبوي في نفس الشاعر، يؤثّر في إبداعه الشعري، ويعطيه صورة أفضل، أو كما قال الصرصري في بيان أثر المدح النبوي في شعره:

بمديحه العطر المنيف تعطّرت وتطهّرت وتنوّرت أوزاني

يعطي القريض غضاضة ونضارة وفصاحة تربي على سحبان (الصرصرى،١٩٨٩: ١١٥)

فالمدح النبوي يعطّر شعره كله، ويطهره من فساد القول وإثمه، فتصبح له نكهة أخرى وموقع مؤثر محبب في النفوس، وهو إلى جانب ذلك يدفع الشاعر إلى الإجادة في قوله، ليرتفع إلى مقام الموضوع السامي، فتكون النتيجة شعرا نضرا فصيحا، لا يجاريه في الفصاحة مجار. فالناس هم الذين طلبوا من الشاعر المتمكّن أن يمدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لأنهم يريدون لمدح النبي الشاعرية الفياضة والمقدرة والتمكن، ليأتي هذا المدح فنا شعريا راقيا، تصبو إليه النفوس وتستمع به. لأن قصائد المدح النبوي عندهم تؤثّر في سامعها، فتفيده وتدخل نشوة الإيمان والحب إلى نفسه، وترفع قدر الشعر وقدر صاحبها، وتنشر مكارم الأخلاق بين الناس، وهي على غاية من الجودة والجمال، لأن الشاعر يحتفل لها كل الاحتفال، ويجهد كي تأتي على أحسن ما تكون صياغة وسبكا، لتليق بموضوعها.فشعراء المدح النبوي حرصوا عند نظم مدائحهم النبوية على أن يجيدوا النظم، وأن يحتفلوا له كل الاحتفال وأن يرقوا في أسلوبهم قدر الإمكان، نظرا لقداسة الموضوع وسموه، ولاحظوا أنهم كلما أرادوا مدح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تيسّر لهم النظم، وتفتحت قرائحهم، فجاء شعرهم في المدح النبوي أفضل من شعرهم في سواه، وكأنهم شعروا أن للمدح النبوي أثرا في شعرهم وفي عملية الإبداع الشعري عندهم، فالمدح النبوي يجعل شعرهم منتشرا بين الناس، ويشهرهم عند المهتمين بالشعر، ولذلك يحرصون على إجادته، وبذلك يكون موضوع المدح النبوي دافعا للشعراء كي يحافظوا على جودة شعرهم، وكيلا ينحدروا في نظمه انحدارهم في نظم الموضوعات الآخرى.

٢-٢ أثره في قصائد الشعر الآخرى:

وللمدح النبوي أثر آخر في شعر العصر، يتجاوز المدائح النبوية نفسها، وما أشاعته من جودة واهتمام بالشكل الشعري، ويصل إلى القصائد المنظومة في مواضيع مختلفة، وخاصة الشعر الديني الذي يقترب من المدح النبوي. فشعراء ذلك العصر اعتادوا أن يختموا قصائدهم بأحد عناصر المدح النبوي، وهو الصلاة على النبي، مثلما يفعلون في كتبهم وخطبهم، فالبرعي أنهى إحدى قصائد الدعاء والابتهال، بعد أن تحدّث عن قدرة الله تعالى وصفاته، وأسس التوحيد الإسلامي، بقوله:

وصـــلّ وسلّم كـلّ لمحة ناظـــــر على أحمــد ما حنّ رعد مجلجل

صلاة تحاكي الشّمس نورا ورفعة وتفضح أنـــوار الرّيــاض وتخجل

تخصّ حبيـــب الزّائـــرين وتنثنـــي على آله إذ هــم أعزّ وأفضـــــل (البرعى،١٩٥٠: ٣٢)

وقبل العصر المملوكي كان بعض الشعراء يمدحون الخلفاء العباسيين والخلفاء الفاطميين بمثل ما يمدح الشعراء رسول الله، وجاء شعراء المدح النبوي فجاروه في معاني شعره ونقلوها إلى مدح رسول الله (ص)، فمعانيه في مدح الخلفاء هي نفسها معاني المدح النبوي. وتابعه عدد من شعراء ذلك الوقت في معاني مدحه للخلفاء، وكأن هذا الأمر كان منتشرا، لا حرج فيه. فمعاني المدح النبوي كانت شائعة في القصائد الآخرى، يستخدمها الشعراء للمبالغة والافتتان في تقليب المعاني، ورأينا كيف أكثر الشعراء من التمثّل بأحوال رسول الله (ص) وضرب المثل به، والاحتجاج لأفكارهم وما يذهبون إليه. ووصل الأمر إلى الغزل، فاستخدمت معاني المدائح النبوية في تلوين معاني هذا الفن، فالوأواء الدمشقي، (ابن شاكر،١٩٧٣: ٢٤٠/٣) حلّف حبيبته قائلا:

إنّي سألتــك بالنّبيّ محمّد ووصيّه الهادي الأمين المهتدي

هلّا هجرت بفيك قولك سيّدي مــولى يقـــول لعبده يا سيّدي (المصدر نفسه: ٣/٢٤١)

فاستخدام معاني المدح النبوي في مواضيع الشعر الآخرى، يظهر مدى انتشار هذا الفن، ومدى تأثيره في الشعر.وكان شعر المدح النبوي غزيرا جدا، لا يحيطه حصر، وبلغ شعراء المدح النبوي عددا كبيرا لا يعلمه إلا الله، وكثير منهم نظموا دواوين مستقلة، قصروها على المدح النبوي، وقد وصف المقري المدائح النبوية بقوله: «*فالمدائح النبوية بحر لا ساحل له، وفيها النظم والنثر*» (المقرى،١٩٣٩: ٧/٥١٢)

فالدواوين المستقلة كثيرة، والدواوين التي يغلب عليها المدح النبوي كثيرة أيضا. ديوان البوصيري في معظمه مدح نبوي، وديوان الصرصري في مجمله مدائح لرسول الله، والشهاب محمود نظم ديوانا خاصا في المدح النبوي، هو (أهنى المنائح في أسنى المدائح)، والوتري له ديوان مستقل في المدح النبوي هو «معدن الإفاضات في مدح أشرف الكائنات»، والبرعي ديوانه مقصور على المدح النبوي والابتهالات، والنواجي له ديوان خاص بالمدح النبوي هو «شمس المطالع» وكذلك للفزاري ديوان «الوسائل المتقبلة»، ولابن الجيّاب ديوان في المدح النبوي. ودواوين شعراء العصر، يحتل المدح النبوي جانبا هاما منها، وهناك دواوين كثيرة ذكرت في كتب الفهارس القديمة، وفي فهارس المكتبات العالمية. وندر أن تفرّد فن شعري من فنون الشعر العربي بديوان خاص به، أو قصر شاعر شعره كله على فن واحد. وهذا دليل على أن المدح النبوي أضحى في الشعر العربي فنا خاصا قائما بذاته، له أهمية كبيرة عند شعراء العربية، وله انتشاره وسيرورته. لقد أصبح المدح النبوي جزآ لا يستهان به من الشعر العربي في العصر المملوكي، وقبيله وبعده.

فغزارة المدح النبوي تجلّت في كثرة الشعراء الذين شاركوا في هذا الفن، وفي الدواوين الكثيرة المخصصة للمدح النبوي، والمجموعات الشعرية المتخصصة، وفي القصائد الطويلة التي لم يعهدها الشعر العربي من قبل. وهذا كله يدل على أن فن المدح النبوي قد رسخ وأصبح غرضا رئيسيا من أغراض الشعر العربي، ومن هنا يتجلى أثره في الشعر العربي، إذ أضحى أحد موضوعاته الهامة. وزاد في غزارة المدح النبوي وانتشاره، وانشغال الناس به، مشاركة من لا يأنس في نفسه مقدرة أصيلة على نظم الشعر، عن طريق المعارضة أو التشطير والتخميس، وغير ذلك من ألوان الإضافات على قصائد المدح النبوي. وأكثر القصائد معارضة من شعر المدح النبوي، قصيدة كعب بن زهير التي بدأها بقوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّــم إثرها لم يفـد مكبـــول (ابن زهير،١٩٦٥: ٦)

وقصيدة البوصيري التي مطلعها:

أمن تذكّر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم (البوصيرى،٢٠٠٢: ٢٣٨)

فهاتان القصيدتان عارضهما شعراء كثيرون، وما زالوا يعارضونهما إلى أيامنا هذه. فأكثر الشعراء الذين نظموا المدح النبوي، عارضوا قصيدة كعب هذه، وكل منهم أظهر في معارضته مقدرته الشعرية، فبعضهم تابع كعبا في معانيه وعباراته، وبعضهم اقتصرت المعارضة على الوزن والقافية. ومن القصائد التي اشتهرت ولاقت إقبالا من الشعراء على معارضتها، يائية ابن الفارض في التصوف، والتي صرف معارضوها معانيها إلى المدح النبوي، وهي التي بدأها بقوله:

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعما عرّج على كثبان طي (ابن الفارض،دون تا: ٣)

وقد مرّت معنا أمثلة وافية وكلها تدل على مشاركة الناس الواسعة في نظم المدح النبوي، فكل واحد يشارك حسب مقدرته وموهبته وثقافته، ووصل الأمر إلى النظم الملحون الذي انتشر في ذلك العصر. ونتيجة لذلك كان شعر المدح النبوي غزيرا، وكان ناظموه كثيرين، فرسخ فنا شعريا مستقلا، له أصوله، وله خصائصه، وله شعراؤه، وله استمراره إلى أيامنا هذه. ولا شك أن هذه الرغبة الكبيرة عند الناس في المشاركة في المدح النبوي، قد دفعتهم إلى الدرس وتحصيل الثقافة اللازمة للحديث عن رسول الله صلّى الله، والاستعداد لنظم الشعر بعد معرفة ما يقيمه، فكان المدح النبوي أحد دوافع التعلم والتثقف، وأحد العوامل التي حثّت القرائح وأعملت العقول، ومنعت الشعراء من الاستغراق كلية في الصنعة الجامدة، والألاعيب اللفظية. فهم لا يجرؤون على التعامل مع المدح النبوي تعاملهم مع شعر

الألغاز وسواها من الموضوعات التي أزجوا فيها وقت فراغهم، فقداسة الموضوع حتّمت عليهم الارتقاء بشعرهم، والحرص على جزالته، لأنه لا شيء يستحق عناء الدرس وبذل الجهد العقلي أكثر من الشعر الديني، وبذلك حافظ شعر المدح النبوي على شيء من الأصالة والجزالة، لم تتوفر للموضوعات الآخرى. وهكذا يظهر لنا أثر المدح النبوي في الشعر العربي آنذاك، إذ بعث فيه الحركة والنشاط وحافظ على صورته الأصلية، وإن كان قد تأثر بأشكال التعبير الشعري التي عرفت في ذلك العصر.

٢-٣ الملاحم:

إن من يقرأ المدائح النبوية يشعر بشيء من النّفس الملحمي فيها، وخاصة في القصائد الطويلة التي سردت سيرة رسول الله وذكرت معجزاته، ووقفت عند كل صغيرة وكبيرة في حياته، وصورت جهاده وغزواته ومواقفه، فإننا نحس بشيء لم نألفه تمام الإلفة في الشعر العربي، لا هو مغاير تماما للشعر القديم، ولا هو متطابق معه، وربما كان تطويرا لما كان سابقا، فالشعر الذي يسرد أحداثا قصصية، يكاد يقترب بشيء من المعالجة والجمع والتوفيق، من الشكل الملحمي. وقد ألمح النقاد إلى وجود تشابه بين السير الشعبية الكبيرة التي عرفت في الأدب العربي، وبين الملاحم المعروفة في آداب الأمم الآخرى، إلا أن الملاحم نظمت شعرا، في حين أن السير الشعبية في الأدب العربي اختلط فيها الشعر والنثر، ولكننا لو جمعنا الشعر الذي ورد في السيرة الشعبية، وربطنا بعضه مع بعضه ربطا شعريا، وملأنا ثغراته، لأكمل عندنا ملحمة شعرية طويلة، تقترب كثيرا من الملاحم القديمة في الآداب الآخرى.

والسير الشعبية في الأدب العربي لا يعرف لها مؤلف، أو هي من قبيل التأليف الجمعي، يزيدها الشعب كلّما امتد بها الزمن إلى أن استقرت على الشكل الذي نعرفها به اليوم، هذه السير تعبّر عن رغبة الإنسان العربي في تجسيد البطولة القومية المطلقة، لذا تلمّس أبطاله في أعماق التاريخ، وخلع عليهم من الأوصاف ما يرتاح إليه، وألبسهم من الفضائل ما يعتز به ويتطلع إليه، فكان عنترة بن شداد، وكان الزير سالم، وأبو زيد الهلالي، وغيرهم من أبطال العرب الأسطوريين. وقد تحققت في رسول الله، البطولة المطلقة والفضيلة الكاملة، ورغبة العرب في المجد والقوة، فهو مَثَلُهم الأعلى في كل مناحي الحياة وقيمها، وهو الذي صنع لهم المجد والسؤدد والسيادة، فلماذا لم تحل شخصيته الفريدة محل الأبطال الأسطوريين في الأدب العربي، مثلما حلّت في نفوس العرب. لقد ارتاح دارسو الأدب العربي إلى الرأي القائل بخلوه من الملاحم، وأن العرب لم يعرفوا في تاريخهم الطويل بعض الفنون الشعرية التي عرفتها الأمم الآخرى، مثل الشعر الملحمي والشعر المسرحي، وأن شعرهم اقتصر على الشعر الوجداني أو الغنائي، أو الفردي في تسمية أخرى، وأن هذه الفنون لا تتلاءم مع عقلية العرب. ولكن ألم يظهر عند العرب ما يقرب من هذه الفنون الأدبية أو يشبهها؟

فالشعر الملحمي عند الأمم الآخرى، هو «شعر قصصي بطولي متشعّب، طويل السرد، فيه العظمة والخوارق والأهداف الكبيرة، والآمال الواسعة، والنزعة الإنسانية، والاتجاه القومي، والمجال الرحيب. وهو أقدم الفنون، هدفه الجماعات والأفراد، وتمجيد الأمة، لا نقد المجتمع» (جورج، دون تا: ٥)

و «البطل الملحمي هو المثل الأعلى المحتذى، والقائد إلى الظفر الذي تعقد عليه الآمال» (المصدر نفسه: ٦). إن في شعر المدح النبوي عناصر كثيرة تلتقي مع عناصر الملحمة، وإن كان في الملحمة (يمتزج الواقع بالأسطورة، وتختلط الملائكة بالجن، والآلهة بالبشر، والعقائد بالخرافات، والواقع بالخوارق) (المصدر نفسه: ٦). والمتمعن في شعر المدح النبوي يجد بعض شعرائه قد ذهبوا في حديثهم عن الغيبيات كل مذهب، حتى ليحار المسلم أمام ما يوردونه من روايات غيبية، ومن عقائد غريبة، استمدوها من الأديان الآخرى والفلسفات الأجنبية.وفي الملاحم المعروفة يكون «استخدام غير المعقول في الملحمة في الأحداث العرضية، أما الموضوع الأساسي، فلا يسمح فيه» (أمين،١٩٤٣: ١٥/١)، وقيل عن الطور الذي تنشأ فيه الملاحم: «كثير من الأمم في هذا الطور كان يعتقد أن الملك يستمد سلطانه من الله، لا من الأمة.. ويصبح هذا الحاكم المتصل بالآلهة والأبطال الماضين رمزا تنسج حوله أقاصيص التقديس والتبجيل.. ومن هنا ينشأ شعر القصص أو شعر الملاحم» (المصدر نفسه: ١٩/١).

يكاد الباحثون يجمعون على أن الأدب العربي خال من هذا الفن، فذهبوا إلى أن «ممّا يؤسف له أننا لا نستطيع هنا أن نتحدث عن الملحمة في الشعر العربي، لأن المحقق حتى الآن أن هذا النوع الأدبي لم يوجد، ولم توجد فكرته عند شاعر عربي معروف» (عز

الدين،١٩٥٥: ١٢٨)، فهذا الرأي لا يقطع بخلو الأدب العربي من الملاحم فقط، بل ومن فكرته أيضا، في حين نجد باحثين آخرين يرون في الأدب العربي ما يشبه فن الملاحم، أو ما يعد بذرة له، فمنهم من يرى أن العرب «عرفوا الشعر الملحمي، ولكنهم لم يعرفوا الملحمة كبناء» (جورج،دون تا: ٩)، أي أن في الشعر العربي ما يحمل مواصفات الشعر الملحمي، لكنه لم ينظم في ملحمة متكاملة كتلك التي توجد في الآداب الآخرى، لأنهم «اعتنقوا الوصف في هذا الشعر وأهملوا القصة– نواة الملحمة– فاثروا الإيجاز على الإطالة، واكتفوا بالجزئيات دون الماهيات» (المصدر نفسه: ١١)، غير أننا نجد في العصر المملوكي ذكرا للملحمة، فقد أحضر أحدهم بين يدي السلطان، «فأمر بقطع يده ولسانه، وسبب ذلك أنه كتب ملحمة، وعتّق ورقها، وأهداها إلى شيخ، وذكر فيها أنه سيلي السلطنة» (إبن إياس،١٩٦١: ٨٠٠). فكأن الملحمة في مفهومهم هي تنبؤ بالمستقبل، ولا ندري من سياق الخبر فيما إذا كانت هذه الملحمة شعرا أو نثرا. وأشار بعض الباحثين إلى وجود تشابه بين قصائد ومنظومات في الشعر العربي وبين نوع من الملاحم في الآداب الآخرى، ورجّحوا وجود حس ملحمي في قصائد أخرى مثل قصة عاد الأوسط في إخبار عبيد بن شرية الجرهمي (المصدر نفسه: ٨١٢)، الذي أورد شعرا ليعرب وشعرا لعاد وشعرا لثمود وطسم، وهذه الأخبار تضم شعرا وقصصا في منتهى الغرابة، تتحدث عن العرب في الأزمان الغابرة. ومن أمثلة الشعر الذي تورده، شعر لواحد من عاد، يتحدث فيه عن قحط ألمّ بقومه، ويقول فيه:

ألا نزلت بنـــا حجج ثلاث على عـــاد فما تحتال عاد
فدمعهم يبـــلّ التّرب منـــها ومـــا يدرون مـــا بهم يـراد
وقد علمت بنو عاد بن عوص بـــأنّ مشورتي لهـم رشـــاد
بأن يتخيّروا وفدا يسيـــروا إلى البيت العتيق لهم سداد
فيستسقوا المليك البرّ غيثا بـــه تحيـــا البريّة والعبـــاد (الحموى،دون تا: ١٠/٥)

وأورد عبيد قصة عاد الأسطورية التي يتناوب في سردها النثر والشعر، وهذا الشعر يحاك على لسان أبطال الحوادث حينا، وعلى لسان الرواية حينا آخر، ولو جمع الشعر إلى بعضه بعضا، لأدّى نوعا من الملحمة. وهذه الأخبار قريبة من السيرة الشعبية التي عرفت في أدب العربي، وخاصة سيرة سيف بن ذي يزن، إلّا أن شعرها فصيح، وروايتها فصيحة، فهي حديث عبيد لمعاوية. وحين لاحظ الباحثون وجود ما يشبه الملاحم في شعر المدح النبوي، اختلفوا حوله، فأقر قسم منهم بتشابه بعض قصائد المدح النبوي مع الملاحم على وجه من الوجوه، ونفى قسم منهم هذا التشابه، معتمدا على مضمون الملاحم التي تمتزج بالتهاويل والأساطير وذكر العبادات القديمة، ولا تلائم الفحوى الإسلامي، الذي شيدت عليه القصائد الكبيرة في المدح النبوي. وقد ذهب (عبدالله كنون) إلى أن قصائد المدح النبوي «أحق بأن تصنف في شعر الملاحم من المعلقات والقصص المذكورة، لأنها أطول نفسا، وأكثر حوادث، وأغنى بصور البطولة والكفاح من أجل إثبات الوجود العربي، وإعلان رسالة الإسلام المقدسة، التي أحلّت العرب محل الصدارة بين الأمم» (كنون، دون تا: ١٩٢). وضرب لذلك مثلا بردة البوصيري، فقال: «هل تقاس معلقة عمرو بن كلثوم مثلا بقصيدة البردة، وما اشتملت عليه من فنون القول، كالنسيب الذي يرقق الطباع، والحكمة المزكيّة للنفس، والإعلان عن مولد صاحب الدعوة الإسلامية، وما صاحبه من الآيات والعجائب، ما صح منها، وما يروى عن طريق الرؤى والتجليات، لأن المقام للخيال الشعري أكثر مما هو للتحقيق العلمي» (المصدر نفسه: ض١٩٣)، ولكن لا يوجد في هذه الأشعار وهذه الروايات بطل واحد سوى راويها، ومن ذكرتهم من أبطالها كعاد وتبّع ولقمان، يقتربون من أبطال الملاحم. إن تحلي بعض قصائد المدح النبوي بعناصر الملحمة شيء موجود يحسه كل من يطالع هذه القصائد، ففيها يمتزج العالم الواقعي بالعالم الروحي، وفيها تصوير لمعارك وحروب بطولية خارقة، وفيها قيم إنسانية نبيلة، وفيها سرد لأحداث الدعوة الإسلامية ولحياة الرسول الكريم، وفي بعضها يمتد الصراع إلى الأمم الآخرى، وفيها تصوير لمراحل نشوء الأمة العربية الإسلامية وانتصارها على أعدائها، وإيضاح لرسالتها السامية الخالدة التي حملتها إلى البشرية، وفيها فوق هذا وذاك تجسيد للإنسان الكامل، رسول الله، البطل الإنساني المطلق، والمثل الأعلى للإنسانية في جوانب حياتها كافة.

فهذه القصيدة التي زادت على أربع مئة وخمسين بيتا، جمع فيها البوصيري بشاعرية فياضة بين سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعجزاته، وبين مجادلة أهل الكتاب وذكر مشاعر الحج وطريقه، وبين مدح رسول الله ووصف مشاعر المؤمنين الذي يسعون لزيارته، وبين مدح آل بيته وصحابته والوعظ والحكمة. يتحدث عن المعارك والبطولة، وعن الخوارق والمعجزات، ويذكر الناس والملائكة، وينتقل ما بين عالم المادة وعالم الروح في كلّ متكامل، وصراع حاسم بين الخير والشر، إنها ملحمة الهداية وملحمة الإنسانية، وملحمة صراع العرب مع أعدائهم، ومن أجل تشكّل أمتهم. فالحس الملحمي واضح فيها ظاهر، لأنها تؤرّخ للدعوة الإسلامية، وتؤرّخ لحياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتربط الماضي بالحاضر، وتجسّد البطولة المطلقة والمثل الأعلى، والقيم المثلى للأمة، فماذا يبقى من المميزات الأساسية للملحمة؟

وإلى جانب هذه القصيدة، يوجد في المدح النبوي قصائد كثيرة مشابهة، تحمل حسّا ملحميا، أو ملامح ملحمية، فإن لم تكن هذه القصائد ملاحم تشابه الملاحم الموجودة في آداب الأمم الآخرى، فلتكن ملاحم عربية، ولتكن الملاحم العربية تختلف عن غيرها، فليس من الضرورة أن تتطابق مع سواها، ولتكن لها شخصيتها المستقلة مثلما للأمة شخصيتها المستقلة، ولتكن هذه القصائد الفن الشعري الذي يقابل الملاحم عند الأمم الآخرى، ولتكن له أية تسمية أخرى، فإن التسمية لا تقرر ماهية هذا الفن، ولا تعطيه مشروعية الوجود، فالتسمية لاحقة وليست سابقة، إذ لا نستطيع أن نتجاهل مثل هذه القصائد التي قد تبلغ حجما لم يعهد من قبل، وقد تحمل من الخصائص ما لم يتوفر في قصائد سابقة، مثل قصيدة الصرصري التي بلغت ثماني مئة وخمسين بيتا، والتي قال في مقدمتها:

أصبحت أنظم مدح أكرم مرسل لــهجــا بـــــه في رائق الأوزان
حبّرت فيه قصيدة أودعتها من مسند الأخبار حسن معان
في وصفه من بدء تشريفاتــه حتّى الختام بحسن نظم معــان (الصرصرى،١٩٨٩: ٩٦)

إن هذه القصيدة الطويلة، التي جمع فيها الصرصري كل ما يعرفه عن سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والتي حفلت بمظاهر الاتصال بين عالم الواقع وعالم الغيب والشهادة، وبمظاهر الصراع بين الحق والباطل، وجسّدت البطولة الإنسانية المطلقة، لا تغيب عمّن قرأها ملامح الملحمة، وإن لم تتطابق معها، فالمطابقة ليست ضرورية هنا، والمهم أن في قصائد المدح النبوي أبرز الأشكال الشعرية التي تقرب من فن الملاحم، أو فيها الشكل العربي للملحمة.

القسم الثاني: البديع:

غلبت الصنعة البديعية على معظم شعر العصر المملوكي ونثره الفني، حتى أصبحت خاصة يعرف بها أدب ذلك العصر، فقد فتن أهل ذلك العصر بزخرف كلامهم مثلما فتنوا بزخرف أبنيتهم وألبستهم وأدواتهم، وعدّ التجويد أو الاستزادة في البديع مما يتفاضل به الأدباء، ومما يدل على مهارتهم وتفوقهم.

ولم يكن شعر المدح النبوي بمنأى عن هذه الصنعة البديعية الطاغية، فظهر البديع في قصائد المدح النبوي بدرجات متفاوتة، فمن الشعراء من حاول مجاراة الأقدمين في مدحه، فلم يترك البديع على شعره إلّا ظلالا باهتة، ومنهم من اعتدل في اصطناع البديع، ومنهم من أسرف في اصطناعه إلى أن انقلبت قصائده إلى معرض لفنون البديع، لا يهمه بعد إثباتها في شعره إن جارت على أسلوبه ومعانيه جميعها، وأتت على حساب دقة المعنى وتدفق الشعور وصدق العاطفة ورونق الصياغة والشاعرية. وقد أطلقت تسمية البديع على قسم من علم البلاغة الذي يشمل مباحث المعاني والبيان والبديع، ويراد به تحسين الكلام وتنميقه، ومعرفة أسرار جماله ومعانيه، أو كما قال الحلي: «إن أحق العلوم بالتقديم، وأجدرها بالاقتباس والتعليم، بعد معرفة الله العظيم، ومعرفة كلامه الكريم، وفهم ما أنزل في الذكر الحكيم، لتؤمن غائلة الشك والتوهيم.. ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعرفة علم البلاغة وتوابعها من محاسن البديع اللتين بهما يعرف وجه إعجاز القرآن..» (الحلّى، ١٩٩٧: ٥١).وفنون البديع معروفة منذ القدم في الكلام العربي، أخذ الأدباء يهتمون بها مع تقدم الزمن، ويقصدون إليها قصدا، بعد أن كانت تقع في كلام العرب عفو الخاطر، إلى أن جاء ابن المعتز، ووضع كتابه (البديع)، فدلّ على

بعض أنواعها وحدّدها،وفتح بابا للتأليف، اتسع شيئا فشيئا إلى أن وصل إلى أقصى اتساع له على يد ابن أبي الإصبع، الذي أوصل أنواع البديع إلى التسعين في كتابه (تحرير التحبير) «أصح كتاب ألّف في هذا العلم» (المصدر نفسه: ٥٣)

وكان من نتائج الإغراق في الصنعة البديعية عند شعراء المدح النبوي ظهور لون خاص من المدائح النبوية، هو البديعيات التي جمعت بين المدح النبوي وفنون البديع، وعدت فناً جديداً من فنون الشعر العربي. والبديعيات قصائد في مدح رسول الله، يحوي كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع التي عرفها أهل ذلك العصر، ويكون البيت شاهدا على هذا النوع البديعي. إن احتفال أهل العصر المملوكي بالبديع كان كبيرا، يتدارسونه ويزيدون عليه، ويؤلفون ويصنفون، ويختصرون ويشرحون، وعلى عادة أهل ذلك العصر بتقييد العلوم بالشعر، ونظم العلوم في منظومات شعرية يسهل على شداة العلم وطلبته حفظه ودرسه، فقد نظم بعض علماء العصر وشعرائه بعض القصائد التي تجمع فنون البديع، لكنهم لم ينظموا قواعد العلم كما كان سائدا، بل نظموا قصائد ذات مضامين متنوعة، وجعلوا أبياتها أمثلة على فنون البديع، ويتضح هذا الأمر من دوافع صاحب أول بديعية (صفي الدين الحلي)، الذي كان يعد العدة لتأليف كتاب جامع شامل في فنون البديع، لكن المرض أقعده عن إتمام مقصده، فعدل عن تأليف الكتاب، ونظم قصيدة، مدح بها رسول الله، وضمّنها أنواع البديع التي أراد تقييدها في كتابه، وقال عن ذلك:«فعرضت لي علّة طالت مدتها، وامتدت شدتها، واتفق لي أن رأيت في المنام رسالة من النبي عليه أفضل الصلاة والسلام يتقاضاني المدح، ويعدني البرء من السقام، فعدلت عن تأليف الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع، وتتطرز بمدح مجده الرفيع» (المصدر نفسه: ٥٤). فالحلي أراد أن يؤلف كتابا في البديع، وعزم على نظم قصيدة يمدح بها رسول الله، فالتقت في نفسه الرغبتان، وألّف بينهما بنظم قصيدة يمدح بها رسول الله، وينظم فيها أنواع البديع التي هيأها لكتابه المنشود، فكانت البديعية.

وحين بحث الحلي عن شكل لقصيدته، كان أوّل ما تبادر إلى ذهنه أشهر مدحة نبوية آنذاك، وهي بردة البوصيري، فعارضها، أو أن قصة تأليفه لبديعيته المشابهة لقصة نظم البوصيري لقصيدته، هي التي أوحت إليه بأن يجعل قصيدته المنشودة على غرار بردة البوصيري أو برأته، التي شفي إثر نظمها من المرض، عسى أن يشفى هو أيضا من مرضه، فكانت بديعيته معارضة لقصيدة البوصيري، حملت وزنها وقوافيها وموضوعها وبعض عباراتها، وأضاف إليها فنون البديع، فكان الشكل الذي عرفت عليه البديعيات، إذ إن كل الذين جاؤوا بعده، ونظموا البديعيات، لم يخرجوا إلا نادرا عن هذا الشكل. فمعظم البديعيات مدح نبوي، ومعظمها على البحر البسيط وقافية الميم المكسورة، قافية البردة ووزنها. وقد أطلق الحلي على بديعيته اسم (الكافية البديعية في المدائح النبوية)، وبدأها بقوله في براعة المطلع:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم واقرا السّلام على عرب بذي سلم
فقد ضمنت وجود الدّمع من عدم لهم ولـم أستطع مع ذاك منع دمي
أبيت والدّمع هام هامل ســـرب والجسم في إضم لحم على وضم (الحلّى،١٩٩٧: ٦٥٨)

فبعد أن جاء البيت الأول شاهدا على براعة الاستهلال والتجنيس المركّب والمشتبه في قوله (سلعا فسل عن) وكذلك في البيت الثاني الذي سمّاه التجنس الملفق في قوله (من عدم، منع دمي)، وضرب في البيت الثالث مثلا على التجنيس المذيل واللاحق (هام، هامل) و(اضم، وضم). وتمضي القصيدة على هذا النحو، ظاهرها مدح لرسول الله، وباطنها عناية بالبديع، وإيراد لشواهده، فكأن الشاعر يريد نشر فضائل رسول الله وسيرته ومعجزاته، ونشر فن البديع بين الناس سواء بسواء.و كثير من الشعراء تابع الحلي في صنيعه هذا، ولم يخرجوا عن الصورة التي وضعه بها. وبذلك يتضح لنا أن الهدف الأول من البديعيات هو نشر فنون البديع، وأنهم جعلوا المدح النبوي حاملا لبديعهم، ولم يجدوا وسيلة أكثر انتشارا لتعميم فنون البديع من المدح النبوي. وقد اتسمت البديعيات بالتصنع والتكلف، لأن الشاعر يبذل جهدا عظيما في الملاءمة بين معاني المدح النبوي وبين إيراد النوع البديعي وسبك شاهده، وهذا جهد عقلي محض يذهب بالشاعرية والرواء الشعري.

فالبديعيات كانت نهاية ازدياد استخدام البديع في المدح النبوي ومع ذلك لم ينس الدكتور علي أبو زيد في دراسته القيامة عن البديعيات أن يعدد فوائد البديعيات وآثارها في الثقافة العربية آنذاك، فذكر منها: تعميم البلاغة ونشرها بين الناس، لأن المدائح كانت أكثر فنون الشعر انتشارا آنذاك (الحلّى،١٩٩٧: ٢٥١). فالأدب عامة هو ثمرة تفاعل الأديب مع بيئته والظروف المؤثرة فيها، ولذا كانت موضوعات الشعر وشكله الفني في كل عصر صدى لمظاهر البيئة.

حصاد البحث:

بعد استعراض تداعيات المديح النبوى على البيئة فى العصر المملوكي، تبيّن لنا أنه لم يكن عصر ركود وجمود، بل كان عصراً يموج بالحركة والنشاط ومما تقدم نستنتج ما يلى:

- وبذلك نرى أن المدح النبوي الذي بدأ مسيرته في عهد رسول الله (ص)، واستمر خافتا إلى ما قبل العصر المملوكي، أضحى الفن الشعري الأول في ذلك العصر، وأضحى فنا مستقلّا له أصوله وقواعده، وله دواوينه وشعراؤه. وكان لذلك كله أسبابه السياسية والاجتماعية والدينية، وهذا ما ظهر في المدحة النبوية التي لم تقتصر على مدح رسول الله (ص) فقط، وعلى ذكر كل ما يتعلق به، بل تجاوزت ذلك لتحمل صدى عصرها، وآمال الناس آنذاك، فكانت دعوة إلى العدل الاجتماعي والتخلص من كل معوقات تقدم المجتمع وقوته، وكانت دعوة إلى الجهاد والذود عن الوطن، وإلى الوحدة والتضامن، وكانت تعبيرا عن الروح العربية في عصر ساده الأعاجم، فكان لها أثرها في الناس، وكان لها أثرها في الأدب والثقافة، وكانت حافظا للشعر العربي من الانحدار والجمود، إذ أبقت شيئا من أصالته، فكانت معبرا للقصيدة العربية إلى عصرنا الحديث.
- حاول شعراء المدح النبوي *تجسيد المثل الإنساني الكامل*، الذي يتفق جميع المسلمين على تعظيمه وتنزيهه، وقدموا للمطلعين على شعرهم التجارب الإنسانية الرائعة التي يكبرها العقل الإنساني ويفيد منها ويتخذها هدفا له.
- إن انتشار المدائح النبوية انتشارا عظيما، لا بد أنه قد ترك آثارا مختلفة في النشاط الاجتماعي والثقافي للمجتمع المملوكي، ولا بد أن شعراء المدح النبوي قد لمسوا ذلك، وهذا ما حفزهم على المضي بنظم هذا الفن والاتساع به قدر استطاعتهم، فجعلوا من المدح النبوي مشاركة بدعوات الإصلاح في الحكم والمواعظ التي نثروها في المدائح النبوية، وانتقاد مظاهر الخلل في المجتمع، وخاصة حين تقرن هذه الدعوات بالقدوة الصالحة من سيرة سيد الخلق.
- علاوة على ملامح من أثر المدائح النبوية الاجتماعي، كان للمدائح النبوية *أثر تعليمي* تجلّى في المعلومات التاريخية والدينية، وصور البطولة والعظمة، والمواقف الأخلاقية الفذة، والقدوة الحسنة، والدروس المفيدة، التي حفلت بها المدائح النبوية، ولا بد أن الناس أفادوا منها تاريخا وخلقا ومعرفة بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعجزاته، وأنهم حاولوا الاقتداء بسنّته والابتعاد عمّا يخالفها.
- وإلى جانب ذلك بلغ هذا الفن من الاتساع حدا كبيرا، إلى أن أصبح *الفن الشعري* الأول في العصر المملوكي، وتجلى ذلك في الدواوين الكثيرة المقتصرة على المدح النبوي، والمجموعات الشعرية الكبيرة الموقوفة عليه، والقصائد الكبيرة التي لم تعهد في الشعر العربي من قبل، ومشاركة كل الشعراء، أو من يأنس في نفسه مقدرة شعرية، مهما كانت بسيطة، في نظم المدائح النبوية. ولا شك أن هذه الرغبة الكبيرة في المشاركة بفن المدح النبوي قد دفعت الراغبين إلى نظم الشعر، فكان المدح النبوي أحد دوافع التعلم والتثقف، وأحد العوامل التي حثت القرائح وأعملت العقول، ومنعت الشعراء من الاستغراق كليّا في الصنعة الجامدة، والألاعيب اللفظية، فقداسة الموضوع حتّمت عليهم الارتقاء بشعرهم، والحرص على جزالته، لأنه لا شيء أهم من الشعر الديني يستحق عناء الدرس وبذل الجهد، وبذلك حافظ شعر المدح النبوي على شيء من الأصالة والجزالة، لم تتوفر للموضوعات الآخرى.
- وكان للمدح النبوي *أثر وتأثر بالبديع* الذي كان سائدا في ذلك العصر، فالبديع ظهر بدرجات متفاوتة في قصائد المدح النبوي، وطغى على بعضها، فأصحاب البديع حمّلوا المدائح النبوية بديعهم، لينتشر بانتشارها، وتعرف فنونه، ومن هنا جاء التصنع

والتكلف الذي اتسمت به البديعيات، لأن الناظم يبذل جهدا عظيما في الملاءمة بين معاني المدح النبوي وبين إيراد النوع البديعي، وسبك شاهده، وهذا جهد عقلي محض، يذهب بالشاعرية والرواء الشعري.

المصادر والمراجع

١. أمين، أحمد، وزكي نجيب محمود (١٩٤٣م). **قصة الأدب في العالم**، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٢. ابن الأثير، أحمد بن إسماعيل (١٩٥٩م). **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**؛ تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط ١، القاهرة: مطبعة نهضة مصر.

٣. ابن إياس، محمد بن أحمد (١٩٦١م). **بدائع الزهور في وقائع الدهور**؛ تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة.

٤. ابن ثابت الأنصاري، حسان (١٩٧٨م). **الديوان**؛ تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، بيروت: دار الأندلس.

٥. ابن رشيق القيرواني (١٩٧٢م). **العمدة**: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، بيروت: دار الجيل.

٦. ابن زهير، كعب (١٩٦٥م). **الديوان**؛ شرح الزوزنى، القاهرة: دار الكتب المصرية.

٧. ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر (١٩٧٧م). **دار الطراز في عمل الموشحات**؛ تحقيق جودت الركابي، ط ٢، دمشق: دار الفكر.

٨. ابن شاكر، الكتبي (دون تا). **فوات الوفيات**؛ تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

٩. ابن الفارض، عمر بن على (١٩٩٤م). **الديوان**؛ شرح: د.عمر فاروق الطباع، بيروت: دار القلم.

١٠.إسماعيل، عز الدين (١٩٥٥م). **الأدب وفنونه**، مطبعة الاعتماد، ط ١، القاهرة: دار النشر المصرية.

١١.الباعونية، عائشة (١٣٠٤هـ). **شرح الفتح المبين**، المطبعة الخيرية، القاهرة.

١٢. البحتري، أبو عبادة وليد بن عبيد (١٩٧٢م). **الديوان**؛ تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط ٢، القاهرة: دار المعارف.

١٣.البرعي، عبد الرحيم بن أحمد اليمني (١٩٥٠م). **الديوان**؛ شرح حافظ المسعودي، مكتبة البابي الحلبي، ط ٢، القاهرة.

١٤.البوصيرى، محمد بن سعيد (٢٠٠٢م). **الديوان**؛ شرح وتعليق محمد التونجى، ط ١، بيروت: دار الجيل.

١٥.الحلي، صفي الدين (١٩٨٣م).**شرح الكافية البديعية**؛ تحقيق نسيب نشاوي، دمشق: مجمع اللغة العربية.

١٦.الحلي، صفي الدين، عبدالعزيز بن سرايا (١٩٩٧م). **الديوان**؛ تحقيق كرم البستاني، بيروت: دار صادر.

١٧.الحموي، ياقوت (دون تا). **معجم الأدباء**؛ تحقيق د.س. مرجليوث، دار إحياء التراث العربي، طبعة أخيرة.

١٨.الشريف الرضي (١٣١٠) هـ. **الديوان**؛ تصحيح عباس الأزهري، المطبعة الأدبية، بيروت: المكتبة العثمانية.

١٩.الشهاب، محمود (١٣٢٨هـ). **الديوان**؛ أهنى المنائح في أسمى المدائح، القاهرة: مطبعة جريدة الشورى.

٢٠.الصرصرى، يحيى بن يوسف(١٩٨٩م). **الديوان**؛ تحقيق: مخمير صالح، الأردن: جامعة اليرموك.

٢١.الصّفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك (١٩٧٥م). **الغيث المسجّم في شرح لامية العجم**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٢.غريب، جورج (دون تا). **الشعر الملحمي**، ط ٢، بيروت: دار الثقافة.

٢٣.القرطاجني، حازم (١٩٨١م). **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**؛ تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

٢٤.كنون، عبدالله (دون تا). **أدب الفقهاء**، ط ١، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٢٥.المقري، أحمد (١٩٣٩م). **أزهار الرياض في أخبار عياض**؛ تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: المعهد الخليفي للأبحاث المغربية.

٢٦.الهيثمي، ابن حجر (١٣٣١هـ). **الجوهر المنظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم**، المطبعة الخيرية، ط ١، القاهرة.